نوبل

جائزة نوبل بين سارتر وشو

بقلم رجاء النقاش

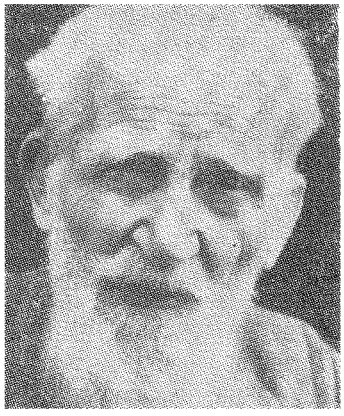

شو

تمثل جائزة نوبل نموذجا للضمير في اطار الرأسمالية الاوروبية . انها صورة مثالية لاقصى درجات الخير في المجتمع الرأسمالي ، وهي في اساسها احتجاج من جانب احد كبار الرأسماليين ، وهو الفرد نوبل ، على الرأسمالية نفسها . لقد جمع نوبل ثروته من اختراع الديناميت والاتجار فيه ، وفي اواخر حياته ادرك ـ بطبيعته النفسية الراقية ـ ان وظيفة « المال »في المجتمعات الرأسمالية ليست وظيفة انسانية مثالية ، انها لا تقدم خيرا للناس ، ولا تضمن اي نوع من انواع الجمال على هذهالارض، ومن هنا قرر قبل ان يموت ان يجعل من ثروته قوة نافعة للانسان . وهو في موقفه هذا يذكرنا بشخصية « روبرت اوين » الاشتراكيالانجليزي المعروف . فلقد كان اوينرأسماليا كبيرا ، ولكنه اكتشف بعقله ووجدانه النبيل ان ثروته ـ في نطاق المجتمع الرأسمالي ـ لا تخدم الانسان بل على العكس تستغله اسوأ استغلال ، ولذلك قرر ان يقف الى جانب العمال ويحقق بعض المصالح الاولية مما يمكن ان نسميهباسم « الاشتراكية الاصلاحية المثالية » اذا صح مثل هذا التعبير في نطاق العلوم السياسية . وأوين لم يضع حلا جذريا لمشاكل العمال ، انه بالاحرى قد وضع حلا لمشكلته النفسية الخاصة ، فقد كان واقعا تحت ثقل ضميره ، واحساسه الصادقبمشاكل العمال ، فتخلص من ازمة ضميره باجراءاته الاشتراكية التي كانت عملا من الاعمال العظيمة في وقتها ـ اوائل القرن التاسع عشر ـ ... ولكن اوين باشتراكيته المثالية الهادئة الوديعة ظل بعيدا عن ان يلمس الجرح الكبير في النظام الرأسمالي .

ويذكرنا موقف نوبل ايضا بموقف تولستوي ، الفنان الروسي العظيم . لقد تنازل تولستوي عن املاكه ايضا في ازمة روحية ضخمة عذبت وجدان هذا الفنان الكبير . ولقد ادرك في مجتمعه الروسي الاقطاعي ان ثروته ليست فيخدمة الانسان ، بل هي العكس سبب من اسباب العذاب الذي يعانيه الانسان . ولانه فنان كبير ، ولانه قادر على ادراك آلام الاخرين ، ولانه مفتوح الوجدان على العالم الخارجي اقدم تولستوي على تنازله عن ثروته ... واذا كان تولستوي قد سجل بهذا الموقف يقظة ضمير عظيم فهو في الوقت نفسه لم يستطع ان يضع حلا للمشكلة الاساسية في المجتمع الاقطاعي ، وهي مشكلة بؤس الفلاحين . ان المسألة لا يمكن ان تحل عن طريق التبرع حتى لو كان حجم هذا التبرع بحجم اراضي الكونتتولستوي الواسعة الشاسعة .

وجاء نوبل في اواخر القرن الماضي ليسجل موقفا من هذهالمواقف التي تدل على ان وراءها ضميرا عظيما دون ان تحل المشكلة الاساسية التي انزعج نوبل نفسه بسبب بعض مظاهرها ، هذه المشكلة هي ما في هذا العالم من بؤس كبير يعانيه الانسان . وكما كان الامر مع اوين وتولستوي كان موقف نوبل ايضا حلا لازمة ضميره الخاص اكثر منه حلا لالوان البؤس التي يعانيها العالم . ان هذا الموقف لم يخرج عن الدائرة الحديدية للرأسمالية الاوروبية . صحيح انه يمثل هذه الرأسمالية عندما تعتريها لحظات معينة قليلة ينتفض فيها ضميرها ويهتز ... الا انه ابدا لا يمثل انكارا للرأسمالية او دعوة الى تغييرها تغييرا جذريا . وقد يقول قائل وكيف كان يمكن لنوبل ان يجعل من جائزته رفضا واحتجاجا على الرأسمالية الاوروبية ؟ ... وهناك ـ فيما اعتقد اجابة بسيطة على هذا السؤال ، فلو ان نوبل قرر منح قسم من جائزته للنابغين في قيادة حركات التحرر العمالية او للنابغين في قيادة حركات التحرر بالنسبة للطبقات الفقيرة في مجتمعات العالم . ربما لو فعل هذا لاعطى لجائزته لمسة اشتراكية . ولكان موقفه دليلا على ايمانه بان استقلال الشعوب الخاضعة للاستعمار هو خطوة هامة نحو السلام ، وان تحرر الطبقات الخاضعة للظلم الاجتماعي خطوة اخرى هامة في سبيل سعادة البشر .

ولكن نوبل لم يطلب شيئا من هذا في وصيته . وبالطبع كان من الصعب ان يطلب هذا في اواخر القرن الماضي ، حيث كانت الفكرة الاشتراكية نفسها ما تزال في كفاح عنيف من اجل بعض المكاسب الاولية، وحيث كان نوبل نفسه يعيش في طقس رأسمالي عريق في الفكر والعمل والنظام الاجتماعي .

على ان موقف نوبل وطريقته في التفكير ونوع الازمة التي مر بها ، كل هذا قد اثر في شخصية جائزة نوبل حتى اليوم تأثيرا كبيرا واساسيا . وهذا ما يفسر لنا كثيرا من المواقف الغريبة التي التزمت بها جائزة نوبل .

فجائزة نوبل لا يمكن ـ بطبيعتها التي حددها صاحب الجائزة منذ البداية ـ ان تكون متعاطفة مع الاشتراكيين في اي ميدان من الميادين. وعلينا ان نتذكر هنا ان الجائزة تصرف حتى اليوم من ارباح ثروة الفرد نوبل ، وهذه الثروة تجنياارباحها من استثمارها في شركات تأمين رأسمالية مائة في المائة ، اي ان جائزة نوبل بكل اقسامها الخمس هي نفسها ثمرة من ثمرات العمل بالاسلوب الرأسمالي . والعمل بالاسلوب الرأسمالي هو اختيار كامل من جانب صاحب الثروة ـ الفرد نوبل ـ نفسه . ولم يخطر على بال نوبل اطلاقا شك في هذا الاسلوب من اساليب الاستثمار المالي. لقد كان مطمئنا لهذا الاسلوب كل الاطمئنان. ومن البديهي بعد ذلك ان جائزة نوبل لا يمكن ان تخرج عن طريقة استثمار رأسمالية ، ثم تدخل في الوقت نفسه في حرب صريحة مع الفكر الرأسمالي والمجتمع الرأسمالي . انها في حقيقتها مثل التبرعات التي يدفعها اي رأسمالي كبير لتشجيع النابغين وما الى ذلك ، مثل هذه التبرعات هي في ذاتها خير وفضيلة ، ولكنها لا يمكن ان تهدفبحال من الاحوال الى تقويض الاساس الذي يقف عليه دافع هذا التبرع . على العكس ... ان التبرع يصبح ـ بقصد او بغير قصد ـ نوعا من الدعاية لصاحب رأس المال ، ونوعا من اضفاء غلالة انسانية على وجهه الحقيقي . اي ان هذا التبرع في النهاية ينبغي ان يفيد ولو في المدى البعيد الجهة التي يصدر عنها . وهذا هو الامر في جائزة نوبل ... انها ثمرة استثمار رأسمالي ، فلا يمكن ان تكونضد الاستثمار الرأسمالي.

وفي نص وصية نوبل امر اخر يفرض على الجائزة طبيعة خاصة .

ان الفرد نوبل يستمد ـ في وصيته ـ تصورا خاصا للعبقرية الانسانية. وهذا التصور في مظهره العام تصور انساني ليس مرتبطا بمذهب او اتجاه ، وهو تصور يوافق عليه الرأسماليون والاشتراكيون على السواء ، ولكنه من وجهة نظر الاشتراكيين يعتبر تصورا ناقصا الى حد بعيد . ولنعد الى نص الوصية حيث يقول نوبل (ص ١٢٢ من كتاب الفرد نوبل ترجمة بهجت عبد الفتاح) :

« انا الموقع ادناه الفرد نوبل اعلن بعد تفكير ناضج مكتمل وصيتي الاخيرة فيما يتعلق بالممتلكات التي يمكن ان اتركها بعد موتي : ان كل ما يتبقى لي سوف يعالج على النحو التالي ، اما رأس المال فسوف يستثمر على يد الذين اوصيتهم بالتنفيذ في شركات التأمين وسوف يتم تشكيل صندوق توزع ارباحه سنويا على شكل جوائز للذين قدموا ـ في العام الاسبق ـ خدمة للانسانية ، وهذه الارباح تقسم الى خمسة اجزاء متساوية تقسم على النحو التالي : احدها للشخص الذي يكون قد خرج باختراع هام او اكتشاف في ميدان الطبيعيات ، وجزء للشخص الذي يخرج باهم اكتشاف في الكيمياء او تطور في هذا الميدان،والثالث لمن يكون قد قام باكتشاف في مجال الفسيولوجيا او الطب ، والرابع للشخص الذي ينتج في ميدان الادب ابرز عمل ذي اتجاه مثالي، والجزء الخامس لمن يكون قد قدم اكبر الاعمال والخدمات لتحقيق الود والصداقة بين الدول من اجل تخفيض الجيوش او ازالتها ومن اجل العمل على اشاعة السلام ونصرته . واني لآمل الا يوضع اي اعتبار ـ عند تقديم الجوائز ـ لجنسية المرشحين لها » واذا دققنا النظر في هذه الوصية وجدنا انها تتصور العبقرية تصورا محدودا بالمجتمع الاوروبي الصناعي المتقدم ، فالابداع الاساسي في نظر صاحب الوصية هو الابداع العلمي وما يتصل به من اكتشافات واختراعات . ولكن صاحب الوصية لم يضع في اعتباره ان ثلاثة ارباع العالم كانت في اواخر القرن الماضي ـ عندما صدرت الوصية ـ تشكو من التأخر والاستعمار ، وان مقاومة التأخر والاستعمار تحتاج الى قيادات تمتاز بالنبوغ والعبقرية ، وربما لا يستطيع شعب انهكه الاستعمار الانجليزي مثل الشعب الهندي ان يقدم اختراعات جديدة في ميدان العلم ، لان حياته العلمية ولا شك هي حياة متخلفة نتيجة لجهود الانجليز في قتل الوعي العلمي عند الهنود . ولكن هل معنى ذلك ان ميدان العبقرية الانسانية في الهند قد الغي تماما ما دامت الهند متخلفة في العلوم ؟ ... ان العلوم نفسها هي وسيلة من الوسائل الهامة التي يستعين بها الانسان في السيطرة على الطبيعة وفي التخلص من مشاكله ، والعلوم من هذه الناحية تلتقي مع اي جهد انساني اخر في سبيل ازالة العقبات المختلفة القائمة امام الانسان . ولذلك تجلت عبقرية الشعب الهندي في وسائله المبتكرة في مقاومة الاستعمار الانجليزي ، والاصرار على النهوض والقضاء على التخلف ، ولقد تجسدت هذه العبقرية الهندية في شخصية غاندي الذي ابتكر الاسلوب الهندي المعروف في المقاومة السلمية ، والمقاطعة السلمية للانجليز . وقد انتصر هذا الاسلوب الفذ ، واثبت ان الهنود المتخلفين لديهم من الثقافة الروحية ما هو ارقى الاف المرات مما نجده عند الانجليز المتقدمين في العلم والحضارة . ولقد كان هذا الابتكار العظيم الذي توصل اليه غاندي ، وقاد الشعب الهندي الى تطبيقه ، نوعا من العبقرية الفذة التي كانت جديرة بان تكافأ اعلى المكافآت في هذا العالم ، ولكن نوبل لم يكن يتخيل ابدا هذا النوع من انواع العبقرية ، لان موضوع هذه العبقرية الجديدة ليس الكيمياء ولا الطبيعة ولا مقاومة المرض وانما موضوعها هو مرض اخر لم يفهمه نوبل ولم يتصوره ، ذلك المرض الخطير هو « الاستعمار » . ولنأخذ نموذجا اخر من العبقريات الانسانية ، نموذجا قريبا منا نحن العرب هو نموذج السد العالي . ان المهندس الاول الذي اشرف على تنفيذ هذا المشروع وهو « كومزين » الروسي يستحق التكريم الى اقصى درجة . انه يقود عملا من الاعمال الانسانية الخلاقة التي تحمل وراءها الخير العميم للانسان . انه عمل يزيد مساحة الارض المزروعة اكثر من مليوني فدان . مثل هذه الاعمال الانشائية الرائعة لماذا لم تجد صدى لها في تصورات نوبل للعبقرية الانسانية ؟ ... ان ذلك لم يحدث لان نوبل لم يكن يدرك ايضا مرض « التخلف » اذا كان صحيحا . انه اوروبي يعيش في مجتمعات متقدمة ... تعبيرها الرئيسي عن العبقرية هو الكشف والاختراع والتقدم العلمي.

وهذا ما اعنيه بان تصور نوبل للعبقرية كان تصورا اوروبيا ، نابعا من عقل اوروبي ، يعيش في اوروبا الصناعية المتقدمة ، ولم يكن تصورا انسانيا شاملا مبنيا على رؤية كل وجوه الصورة الانسانية في هذا العالم ، حتى يمكن على ضوء هذه الرؤية ان يتصور نوبل العبقرية الانسانية تصورا كاملا ناضجا .

على اننا اذا قلنا ان نوبل قد ترك في اساس وصيته تحديدا اوروبيا للعبقرية الانسانية ، فان مما لا شك فيه ان الوصية لا تتيح فرصة لمكافأة المتمردين في داخل المجتمع الاوروبي نفسه . ان الثورة على المجتمع في اوروبا الصناعية المتقدمة لا يمكن ان يكون لها مكان مستقر بالنسبة لجائزة نوبل . لقد استبعدت هذه الجائزة كما رأينا ـ منذ البداية ـ المتعاطفين مع الحركة الاشتراكية او الممثلين لهذه الحركة . ولكن لجنة الجائزة توسعت في هذا المعنى فوقفت موقفا واضحا من المتمردين اصحاب العبقرية الناقدة التي تهدم وتعترض . فالجائزة لم تعط لابسن ، الكاتب المسرحي النرويجي المشهور ، ولقد كان ابسن سنة ١٩٠١ عندما بدأت هذه الجائزة علما بارزا من اعلام العبقرية الانسانية الراقية ، ومع ذلك فقد استبعد من قائمة الصالحين لنيل الجائزة . ولا شك ان الاعتبار الاساسي الذي لم تذكره لجنة الجائزة ، هو ان ابسن كان احد ادباء التمرد في المجتمع الاوروبي في ذلك الوقت، لقد قاد ابسن بمسرحه حركة تحرير المرأة الاوروبية تحريرا عميقا يتصل بوضعها الاجتماعي والروحي معا . ولم يكن مثل هذا التمرد مرغوبا فيه ، لانه يمثل وجها متطرفا من وجوه اوروبا .

كذلك لم ينل هذه الجائزة تولستوي اديب روسيا الاعظم ، وقد مات تولستوي سنة ١٩١٠ ، اي بعد عشر سنوات متتالية من جوائز نوبل ، ومع ذلك لم يجد تولستوي فرصة في هذه الجوائز العشر. واذا كان ابسن اديبا متمردا ، فان صورة التمرد تزداد عند تولستوي عشرات المرات ، ان تولستوي اكثر من متمرد ، انه عاصفة من التمرد والرفض والانكار للاوضاع الانسانية التي تخل بحقوق الانسان وكرامته . ولا شك ان لجنة جائزة نوبل قد نظرت الى تولستوي على انه رجل فوضوي مثير للشغب لا يستحق التكريم .

بعد هذا كله نستطيع ان نفهم لماذا رفض برناردشو سنة ١٩٢٥ جائزة نوبل ، ثم رفضها من بعده باربعين سنة تقريبا جان بول سارتر . ان الموقف مع برنارد شو وسارتر يختلف قليلا . انهما هما اللذان رفضا الجائزة هذه المرة . ولكن الاساس في حقيقته لا يختلف ، فلجنة الجائزة في الواقع قد ترددت كثيرا في اعطاء الجائزة للكاتبين الكبيرين ، وهو تردد يشبه الرفض تماما ... ولذلك كان رفض الجائزة من جانب شو وسارتر اشبه بالاعتذار عن قبول هدية ، يقدمها صاحبها ـ كما يقول التعبير العامي في مصر ـ « من غير نفس » . ان هذا الرفض هو تعبير عن كرامة الرافض للجائزة في جانب من جوانب هذه المشكلة ، ولكن الكرامة ليست العنصر الوحيد في الموضوع ، فهناك ما هو اخطر وابعد اثرا من ذلك .

ان برنارد شو وسارتر وجهان من الوجوه الثائرة المتمردة في اوروبا ، ولذلك ترددت لجنة الجائزة طويلا في تقديم الجائزة اليهما . وردا هما اليها الصفعة عندما رأت اللجنة ان تتغلب على ترددها اخيرا وتقدم الجائزة .

على ان الشبه بين سارتر وبرنارد شو يتعدى كونهما متمردين فقط . فهما اديبان ملتزمان الى اقصى حدود الالتزام الادبي . انهما بمعنى من المعاني سياسيان يكتبان في الادب . فما من قضية سياسية كانت تفوتهما ، وما من موقف تحرري كان يمر بهما دون ان يشتركا فيه ويساهما في نجاحه سواء كان ذلك في اوروبا او خارج اوروبا . بحيث نستطيع ان نقول بلا مبالغة ان الذي ورث برنارد شو في اوروبا هو سارتر ، ولست اعني بذلك انهما يتشابهان في ادبهما ، فهناك فوارق ادبية كبيرة بين الاثنين ، ولكني اعني التشابه الكامل في الوظيفة الاجتماعية والانسانية ، التي اختارها الكاتبان لادبهما ، فادبهما ادب مواقف ، انه ادب يعادي شيئا ويناصر شيئا اخر ، وليس ادبا منفصلا عن القضايا الانسانية الراهنة . وفي هذا الميدان نستطيع ان نذكر

مواقف برنارد شو في تاييد مصر والهند ضد الاستعمار الانجليزي وفي تأييد نضال بلاده : ايرلندة . وفي الوقت نفسه نذكر المناصرة القوية الفعالة ـ في موقف سارتر ـ لمعظم القضايا التحررية في عالم ما بعد الحرب الثانية . لقد ناصر قضية الجزائر ، وقضية كوبا ، وقضية الكونغو وشهيده لومومبا وغير ذلك من القضايا الكبرى . ويشترك سارتر وبرنارد شو ايضا في انهما يميلان بوضوح الى الاشتراكية والاشتراكيين. وقد كانت هذه السمة واضحة عند برنارد شو منذ البداية في انتاجه الادبي والفكري ، اما بالنسبة لسارتر فقد كانت بدايته من هذه الناحية غامضة ، بل لقد حاول كثير من المفكرين الغربيين ان يجعلوا من ادب سارتر وفكره سدا منيعا يقف ضد الاشتراكية ويقف ضد الشيوعية على وجه الخصوص . ولكن سارتر التقى شيئا فشيئا مع الاشتراكيين على اختلاف مدارسهم . لقد التقى بهم اولا من خلال التجارب العملية ثم بعد ذلك اقترب منهم فكريا ، وبذلك تبدد وهم هؤلاء المفكرين الذين تطلعوا الى فكر سارتر وادبه كملاذين هائلين من امواج الاشتراكية التي ابتلعت كل ما امامها من افكار رجعية مترددة او معادية لتطور التاريخ . لقد كانت قوة سارتر املا ضخما لمفكري الغرب الرأسمالي . لان سارتر كاتب كبير متعدد المواهب : فهو فيلسوف وروائي ومسرحي وصحفي . وهو صاحب نفوذ هائل على جماهير القراء في العالم . ولو استطاعت القوى المعادية للاشتراكية ان تكسب سارتر الى صفها لكان ذلك بلا شك نصرا من اعظم انتصارات هذه القوى لا يقل عن النصر العسكري في اقسى الحروب واعنفها .

ولكن سارتر افلت بضميره وقلمه من هذه المصيدة ... ووقف في صف الاشتراكية موقفا لا تردد فيه .

ومن اوجه التشابه الكبيرة بين سارتر وبرنارد شو ، انهما ليسا مفكرين وحسب وانما هما من رجال العمل ايضا . انهما لم يحبسا نفسيهما في ابراج من العاج بعيدا عن مشاكل الحياة العملية ، بل دخلا ميدان العمل بكل قوة . لقد كان برنارد شو خطيبا جماهيريا ومحرضا كبيرا ، وكان عضوا عاملا في الجمعية الفابية التي كانت اساسا لحزب العمال البريطاني . وهذا هو نفسه ما نجده في شخصية سارتر. انه يشترك بلا تردد في المؤتمرات السياسية المحلية والعالمية ، وكان مشتركا في نشاط الحزب الشيوعي الفرنسي ثم انفصل عنه ، واخيرا اسس لنفسه مع بعض اصدقائه حزبا . ثم حل هذا الحزب لاسباب كثيرة من بينها ان الحزب الجديد لم يستطع ان يوفر لنفسه قاعدة جماهيرية كافية في اوساط العمال .

كل هذه الصفات والخصائص المشتركة تبرر تردد لجنة جائزة نوبل في تقديم الجائزة الى الاديبين الكبيرين لمدة طويلة ، ثم تبرر بعد ذلك رفض الاديبين الكبيرين للجائزة ، كل منهما باسلوبه الخاص ، فبرناردشو رفضها باسلوبه الساخر الجريء ، وسارتر رفضها باسلوبه المهذب المحدد .

ولم يكن ممكنا غير ذلك ... لم يكن ممكنا الا تتردد لجنة الجائزة امام شو وسارتر ، فهما متمردان اشتراكيات يوظفان ادبهما توظيفا مقلقا لكل الاجهزة الرأسمالية في العالم ، ولكنهما في النهاية اصبحا حقيقتين كبيرتين بحيث لم تستطع اللجنة تجاهلهما ، كذلك احست اللجنة انهما يمتازان بصفة باقية هي انهما لم ينضما علنا الى الشيوعيين ، وهذا في حساب اللجنة يستحق التقدير ، لان اللجنة اذا كانت تعادي الاشتراكيين فهي تحارب الشيوعيين حربا لا هوادة فيها .

ولم يكن من الممكن ايضا الا يرفض شو وسارتر الجائزة وهذه هي طبيعتها المحددة بحدود النظام الرأسمالي وحدود العقلية الاوروبية في فهمها للعبقرية الانسانية وحدود الميول المحافظة التي تسيطر على لجنة الجائزة وتجعلها تكره التمرد والمتمردين حتى ولو كان التمرد قائما ضد وضع سيىء ونظام لا يستقيم مع حقوق الانسان .

لقد كانت جائزة نوبل وفية لرسالتها وطبيعتها الاساسية ...وكان شو وسارتر وفيين ايضا لرسالتهما وطبيعتهما الاساسية .

القاهرة — رجاء النقاش

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

الحلقة الاولى

قصص سارتر

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروسترات ـ صميمية ـ صداقة عجيبة

تقديم عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٣٥٠ ق.ل

والحلقة الثانية

قصص كامو

في كتاب واحد يضم : الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ اليكم ـ الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

الثمن ٤ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب